

تقرير

شوقي عشقوتبي
lionbars@hotmail.com

الاستفتاء اطلق مرحلة ما بعد "داعش" في الشرق الاوسط.

ما بعد الإستفتاء الكردي على الإستقلال: مفاوضات شاقّة أم حرب طويلة؟

استفتاء اقليم كردستان على الاستقلال كان مثابة زلزال سياسي مع ارتدادات تقوى كلما اقترب الاستفتاء من مرحلة التنفيذ المؤجل. من الواضح انه بعد الاستفتاء لن يكون مثل ما قبله، وان المشروع الكردي احدث تحولا في مسار الاحداث، وسيكون عنوان المرحلة والمنطقة بعد "داعش"

ليس من الواضح كيف ستتطور الاحداث والى اين ستؤول، واي طريق ستسلك الازمة: طريق المفاوضات الصعبة والمشروطة من جانب اربيل بالغاء اجراءات الحصار، ومن جانب بغداد بالغاء نتيجة الاستفتاء كأنه لم يكن، ام طريق الحرب التي يتفادها الجميع لانها مكلفة وطويلة، يمكن ان نعرف كيف تبدأ ومن اين، وعلى الارجح من كركوك، لكن لا يمكن ان نعرف كيف ستنتهي ومتى؟

الاستفتاء الكردي في اقليم كردستان العراق الذي بلغت فيه نسبة المصوتين بـ"نعم" للاستقلال اكثر من 92%، ادخل

العراق في منعطف هو البرز والخطر منذ عام 2003، ويفوق اهمية حدث اعلان تنظيم الدولة الاسلامية "داعش" وسيطرته على اجزاء واسعة من البلاد. وخلافا لـ"داعش" كحالة ظرفية شاذة عابرة كان مقدرا لها ان تنتهي يوما ما ونهايتها كانت مسألة وقت، فان كردستان قضية ومشروع، قضية تاريخ وجغرافيا، ومشروع وطن ودولة، وحلم عمره مئة عام على الاقل.

الاستفتاء حصل وحسم امره. لكن ماذا بعده؟ الاستفتاء ليس نهاية المطاف

خيار الكونفيدرالية

بات خيار الكونفيدرالية مجددا المخرج الوحيد للمشاكل بين اربيل وبغداد، خصوصا بعد التوتر الذي شهدته العلاقات بين الجانبين على خلفية استفتاء الاستقلال. لكن الجانب الكردي، رغم ترحيبه بهذا الخيار، يؤكد ان موافقته عليه لن تكون بلا شرط. علما ان بغداد هي التي اقترحت النظام الكونفيدرالي للعلاقات مع اقليم كردستان، بعد الاعلان عن نتائج الاستفتاء. حتى الان لم تبدأ اي مفاوضات بين بغداد واربييل. لكن واحدا من السيناريوهات التي من الممكن مناقشتها مع بغداد يتعلق بالكونفيدرالية على ان تحترم مشروع دولة كردستان. وتؤكد القيادة السياسية الكردستانية على المزيد من الحوارات مع بغداد، وتشير الى ان كل الابواب مفتوحة بكثير من المشاريع والسيناريوهات.

ويشدد الخطاب السياسي الكردستاني على "اننا ذاهبون الى بغداد نحمل اليهم نتائج الاستفتاء، وكل الاراء والمشاريع والسيناريوهات قابلة للنقاش، بحيث نصل الى صيغة متطورة من العلاقة بين بغداد واربييل".

اسرائيل ومشروع الدولة الكردية

ليست العلاقات بين اسرائيل واكراد العراق جديدة ولا خفية. وهي تعود الى خمسينات القرن الماضي، بعيد شطب فلسطين واعلان دولة اسرائيل عام 1948. الا ان جديدها هو المظاهر العلنية التي بدأت العلاقات تتخذها في السنوات الاخيرة، ورفع اعلام اسرائيل في الاقليم الشمالي. ينبع الدعم الاسرائيلي المشبوه للاكراد من مصالح خاصة لاسرائيل، ليس اقلها اضعاف العرب والحد من نفوذ ايران، الهاجس الاكبر للدولة العربية.

الى هذه الاسباب الواضحة، ليس مستبعدا ان تراهن اسرائيل ايضا في دعمها الدولة الكردية على الاضطرابات المفترضة التي قد تنجم عن خطوة كهذه، خصوصا اذا مضت اربيل في مشروعها احاديا، وقبل التوصل الى اتفاق على المسائل المتنازع عليها بما فيها النفط والحدود وكركوك وغيرها. ومن شأن اي فوضى جديدة في المنطقة ان تريح اسرائيل وتشتت انتباه العالم اكثر، عن سياساتها القمعية والاستيطانية في المناطق الفلسطينية.

لا يخفي رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو خلفيات موقف تل ابيب المؤيد للحركة الانفصالية الكردية في شمال العراق. اذ عمد الى الترويج لتأييد اقامة دولة كردية خلال لقائه مع اعضاء من الكونغرس الاميريكي. وبحسب ما كشف موقع القناة الثانية في التلفزيون الاسرائيلي، اوضح نتنياهو لهؤلاء ان ثمة سببا وجيها لاسرائيل لتأييد الكرد في اقامة دولتهم، موضعا انهم "حلفاء لنا، موجودون في منطقة تقع بين العراق وتركيا وسوريا وايران، وهو ما يمثل ذخرا استراتيجيا لاسرائيل".

وايضا هو البداية. بداية مرحلة جديدة في العراق والمنطقة ستكون معقدة وخطيرة. الاستفتاء اطلق "مرحلة ما بعد داعش" في الشرق الاوسط، وهذه المرحلة يصعب التكهن بمسارها ومصير الدولة الكردية الموعودة نظرا الى التشابك الحاد في خيوط اللعبة الدولية والاقليمية وتضارب المصالح. بالاجمال، هناك مساران وسيناريوهان اساسيان في هذه المرحلة الجديدة:

- الاول: ان يقف الاكراد عند هذه الخطوة لهضمها واستيعاب تداعياتها. حكومات بغداد المتعاقبة وعودها،

وبسبب ان التحالف مع الاكراد لم يعد يشكل حاجة قوية للشيعة كما كانت الحال في ذروة الاحتلال الاميريكي.

في الواقع شعر رئيس اقليم كردستان مسعود البارزاني بوطأة الضغوط والحصار الذي يؤدي بالاقليم الى الاختناق اقتصاديا، وهو الذي لا يملك منفذا بحريا، والمطوّق من دول تترصد به من كل الجهات. لذلك لا يتباهى بالاستفتاء ولا يستقوي به، وانما تواضع ووضع لنفسه سلم النزول عن الشجرة العالية التي تسلكها الى ارض الواقع، بالقول ان الاستفتاء غير الملزم يهدف الى منح تفويض لرئاسة الاقليم لاجراء مفاوضات على الانفصال الذي لن يكون انفصال الامر الواقع، وانما انفصال بعد المفاوضات على اساس تفاهات وترتيبات.

- الثاني: ان يفشل خيار المفاوضات بفعل الشروط والشروط المضادة، فترفض بغداد التفاوض قبل الغاء الاستفتاء، او يرفض الاكراد التفاوض قبل رفع اجراءات الحصار الجوي والبحري، ويرفض الجانبان اعطاء تعهدات و ضمانات مسبقة، فلا يذهب البارزاني في استعداداته الى اكثر من تجريد تنفيذ الاستفتاء من دون التراجع عنه، ولا يذهب رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي في موقفه الى اكثر من تفاوض مشروط بعدم الانفصال. في حال سقط خيار التفاوض، ودخل شمال العراق في ازمت وصراعات وحروب، بدءا من المناطق المتنازع عليها وتنطلق الشرارة من كركوك، المدينة الفسيفساء الغنية بالنفط التي لن يتخلى عنها الاكراد ابدا ولن تتنازل عنها بغداد بسهولة. ويكون مشروع كردستان المستقلة خطوة اولى نحو اعادة رسم حدود الشرق الاوسط بشكل عام على اسس عرقية ودينية.

مرحلة ما بعد الاستفتاء تتصف بالغموض والخطورة:

• اما ان يكون الاستفتاء على الانفصال مدخلا الى مرحلة جديدة من

النزاعات والحروب في العراق وسوريا، ويكون الاكراد وقودا لحروب جديدة والورقة الجديدة في لعبة الامم، بعدما استنفدت اوراق اخرى كان اخرها ورقة "داعش" وانتهت.

• واما ان يكون الاستفتاء مدخلا الى مرحلة تفاوضية جديدة بين اربيل وبغداد من شأنه ان يعزز الموقع التفاوضي للاكراد ويبيح لهم تحسين شروطهم، والحصول على ما لم يتمكنوا من الحصول عليه، ان على صعيد المناطق المتنازع عليها واهمها كركوك، او على صعيد اموال النفط، او على صعيد تطوير المشروع الكردي من حكم ذاتي واقليم مناطقي ضمن فيدرالية لم تنجح حتى الان، الى كونفيدرالية تعطي الاكراد كيانا مستقلا وتحفظ وحدة العراق.

نتائج الاستفتاء توجت بارزاني زعيما تاريخيا، وعززت موقفه في اي حوار مقبل مع بغداد اذا نجحت الوساطات او المساعي الداخلية والخارجية، وخفت حدة الخطابات والتهديدات النارية. لكن هذه المكاسب التي جناها رئيس الاقليم تتعرض للتآكل اذا طاول الحصار الثلاثي العراقي والتركي والايراني او اشتد. ولا يعقل ان يكون زعيم الحزب الديمقراطي اخطأ حساب النتائج، ولا يعقل الا تكون لديه خطة بديلة. مشكلته الان انه لم يعد في مقدوره التراجع الى حد اعلان الغاء نتائج هذا الاستحقاق، مثلما يضع العبادي وآخرون شرطا للجلوس الى طاولة الحوار. اذ ان الاخير ايضا لا يمكنه التهاون او تقديم اي تنازل، فيما المعركة على الانتخابات النيابية في السنة المقبلة على اشدها. لا يمكنه التساهل امام خصومه، خصوصا غريمه نوري المالكي، ولن يكون سهلا عليه فتح الباب امام صيغة كونفيدرالية لانها في المحصلة بين منزلتي الوحدة والتقسيم.

لكن ما حدث في كركوك كان مثابة نقطة تحول في مسار الازمة الكردية. يتصرف رئيس الحكومة العراقية كأنه



مسعود البارزاني تكسر زعيما تاريخيا للاكراد.

في المقابل ان "الاستفتاء لن يهدر على الاطلاق، ولن نضحى به، وسنبذل كل جهد للحفاظ على مكتسباتنا".

في الواقع لا يمكن البارزاني ان يتراجع وان يلغي الاستفتاء، واذا حصل يكون قد قضى على زعامته ومشروعه في آن. لذا، فان الزعيم الكردي في وضع صعب وحرَج. مشكلته ليست فقط مع الحكومة المركزية، واما مع شركائه في "الاقليم"، وتحديدًا حزب الاتحاد الوطني بزعامة نافل جلال طالباني الذي ابرم اتفاق تسليم كركوك مع قائد الحشد الشعبي هادي العامري برعاية ايرانية من الجنرال قاسم سليماني.

في ظل اجواء الصدمة، تمرر اتهامات لحزب الطالباني بالخيانة ولمسعود البارزاني بانه ارتكب خطأ جسيما ولم يحسب النتائج والعواقب، مع تساؤلات على ماذا راهن في تصعيد الازمة مع بغداد ومع الجارين الاقليميين التركي والايراني.

في الواقع، البعد الداخلي للازمة هو الاعم مع احياء الانقسام والخلاف التاريخي بين الفصائل الكردية وانكشاف عمق الازمة الداخلية. فقد هزم "المشروع الانفصالي" من داخل اقليم كردستان

قبل ان تتحرك القوات العراقية وتحكم قبضتها على كركوك، فضلا عن استعادة جميع المناطق المتنازع عليها التي شملها الاستفتاء. بافتراق الرؤى والتصورات وعمق الانتقادات المتبادلة بين الحزبين الكرديين الكبيرين، الحزب الديمقراطي الذي يتزعمه البارزاني وله صلات قديمة مع اسرائيل، والاتحاد الوطني الذي اسسه طالباني وله صلات تاريخية مع ايران، تشققت وحدة البشمركة وتبدت على السطح الساخن اتهامات متبادلة، ليس اقلها الخيانة. الشكوك عميقة، فحزب البارزاني يسيطر على اربيل ويمسك وحده بمقاليد السلطة وعائدات

النفط، ويتهمه معارضوه بأن تجربته في حكم الاقليم التي امتدت الى اكثر من ربع قرن، لم تساعد على تحسين احواله، وانه محض ديكتاتور صغير امم الحياة السياسية ولم يترك منصبه رغم انقضاء مدته، وعطل الحياة النيابية بالكامل. وحزب طالباني يكاد يهيمن على السليمانية، وهي محافظة كردية مهمة، وحضوره السياسي والعسكري في كركوك المتنازع عليها ابرز واقوى، وهو متهم - من الحزب الاخر - بالخيانة نتيجة قرار منفرد اتخذه وانتهى بانسحاب البشمركة بالطريقة التي جرت. يسود اعتقاد لدى الاكراد بأن ما حدث

الخيار العسكري مستبعد

ثمة ضغوط سياسية واقتصادية ونفسية هائلة تمارسها ايران وتركيا على رئيس اقليم كردستان مسعود البارزاني لحمله على الغاء الاستفتاء. ويمكن ان تتدرج وصولا الى الخيار العسكري. فقد بدأ التلويح بهذه الورقة عبر مناورات عسكرية تجريها تركيا وايران، كل على حدة، على مقربة من الحدود مع كردستان العراق.

وتقول مصادر تركية ان زيارة الرئيس التركي رجب طيب اردوغان لايران وقبلها زيارة رئيس الاركان، استهدفتا التحضير لترتيبات عسكرية في شمال العراق، وان تداعيات الاستفتاء دخلت مرحلة جديدة ستحل فيها السياسات العملية محل الدبلوماسية التي بقيت في المقدمة حتى يوم اجراء الاستفتاء. لكن هذا الخيار العسكري، الذي يبرز أكثر في كلام ايران المتجهة الى دفع الجيش العراقي والحشد الشعبي في اتجاه كردستان بعد "داعش"، دونه عقبات ومحاذير منها:

- 1- التصعيد العسكري يستفز سكان كردستان ويدفعهم الى الالتفاف حول قياداتهم، في مواجهة ما يعتبرونه عدوانا عليهم او مؤامرة لكسر ارادتهم وقراراتهم.
- 2- تتفادى تركيا عملا عسكريا مباشرا ضد الاقليم الكردي الذي تربطه بها مصالح اقتصادية (تجارية واستثمارية) وامنية (في مجال التنسيق ضد حزب العمال الكردستاني)، واي حرب ضد اكراد العراق "الاشداء في القتال وفي الجبال، لن تكون نزهة رغم تفوق الجيش التركي عدة وعددا، وستحرك اكراد تركيا الذين يتحينون الفرصة للانتفاض على حكومة اردوغان".
- 3- المجتمع الدولي لا يبدو مستعدا لتقبل نزاع مسلح جديد في منطقة تعج اصلا بالازمات والصراعات، في وقت لم تكتمل بعد الحرب على "داعش" في سوريا والعراق وتشارك فيها قوات كردية.
- 4- ثمة التباس في الموقفين الروسي والاميركي، ان لجهة التحفظ عن العقوبات المفروضة على اكراد العراق، او لجهة الحض على الشروع في حوار للوصول الى صيغة للتعايش. روسيا لها مصلحة في تقوية علاقتها مع كردستان التي لها فيها مشاريع نفطية عملاقة، والتي توفر لها ورقة مساومة مع قوى اقليمية مؤثرة مثل تركيا وايران. والولايات المتحدة تواصل نهجها المرواغ حيال الاستفتاء الذي ترفضه وفي الوقت ذاته تبدي استياءها من الاجراءات العقابية الاقتصادية والدبلوماسية التي اتخذتها بغداد ودول الجوار، فكم بالحري اذا تم اللجوء الى اجراءات عسكرية؟

في كركوك كان الهدف منه ضرب المكانة القوية لاقليم كردستان في المعادلات المستقبلية لكردستان او المنطقة بأسرها، والمتضرر الرئيسي منها هي الجبهة المناهضة لايران والمستفيد الرئيسي ايران التي دخلت كركوك بأسلحة التحالف الدولي وازادت ان تدمر قدرات البشمركة خلال هذه الحرب بحيث لا تتمكن من فعل شيء في المرحلة المقبلة المتمثلة بمرحلة ما بعد القضاء على "داعش"، وان التغييرات الحقيقية في الشرق الاوسط ستبدأ بعد الانتهاء من التنظيم الراهي. في اعتقادهم انه بعد قرار مجموعة (1+5) ومحاولات واشنطن الجديدة الغاء الاتفاق النووي مع ايران، تعمل طهران بكل الاشكال للسيطرة بشكل كامل على العراق من اجل عاملين: الاول يتمثل في سعيها الى تعويض ما تهر فيه من انهاك ونقص الاموال بسبب حرب سوريا واليمن من نفط العراق، والثاني يتمثل في تعويض خسائر الحرس الثوري البشرية في حرب سوريا بقوات اخرى في العراق تدعى الحشد الشعبي. لذلك اذا استمر هذا الوضع فان قوة كركوك الاقتصادية والعسكرية ستكون لايران بالكامل. ويرى مراقبون ان ايران هي المستفيدة الاولى، وخرجت رابحة من هذه الجولة. لكن هناك نتائج اخرى اولها تمتين اواصر العلاقة بين ايران وتركيا التي وجدت ان تحالفهما تمكن في وقت قياسي من اجهاض الانفصال الكردي، وانها ربحت ايضا في وقت ما زالت غير مطمئنة الى الولايات المتحدة واي تعهدات في شأن احتمالات تأسيس دولة كردية في الشمال السوري. من النتائج ايضا ان مشروع تقسيم العراق الى دويلات ضربت احدى اهم ركائزه وصارت الفيدرالية سقفا اعلى لنظام العراق ومستقبله. كما ان سوريا معنية بهذا التطور. مع تقويض المشروع الانفصالي في العراق تتراجع فرص واحتمالات قيام مشروع مماثل في سوريا.